رأي

«الربيع العربيّ»: عن الثيران البيضاء والأحصنة السوداء

محمد رامي عبد المولى ❖

تعيس جدًّا هذا الزمنُ الذي أصبحتْ فيه إماراتُ البترودولار الوهّابيّة هي الراعي الرسميّ لألعاب «الانتقال الديمقراطيّ» في الوطن العربيّ. مخجل جدًّا هذا الزمنُ الذي أصبحتْ فيه القوى الإمبرياليّة الغربيّة جمعيّاتٍ خيريّةً تنشر السلام والحب في مضارب العرب. مهين جدًّا هذا الزمن الذي أصبح فيه سلطانُ إسطنبول العثماني الجديد، أردوغان، هو عرّاب «النهضة العربية.» مضحك جدًّا (حدَّ البكاء) هذا الزمنُ الذي أنتج «ربيعًا عربيًّا» أبرزُ ثماره تحالفٌ «سنّيّ» - صهيونيّ - إمبرياليّ يسعى إلى ضرب ما تبقّى من جيوب المقاومة العربيّة، وتدجينِ أيّ قوة ممانعة في المنطقة، وتعويم القضيّة الفلسطينية.

كنتُ من الذين استبشروا خيرًا بالانتفاضة التي اندلعتْ في بلدي (تونس). ولم أتحكّم في دموعي يومَ انتفضتْ مصر، قلبُ العروبة النابض (نعم هي كذلك وإنْ كره الكارهون). وسقف أحلامي وأحلام ملايين العرب ارتفع بسرعة صاروخيّة حتى جاوز العرش. كنتُ من الذين ظنّوا إننا ربما سرنا الخطوات الأولى في طريق النهضة العربيّة، وأننا هدمنا أولَ الأسوار العظيمة التي كانت تؤبّد تشرذمَ العرب وتجزّئ وطنَهم الكبير. كنتُ من الذين ظنّوا أننا حفرنا الخنادقَ الأولى تحضيرًا لمعركة تحرير فلسطين وباقي الأرض العربيّة المحتلّة. لكنّ سرعان ما أثبت منحى الأحداث في ليبيا وسوريا، من تدخّلٍ استعماريّ غربيّ سافر ودعمٍ مذهلٍ من الرجعيّة العربيّة والتركيّة، أنّ فجر الحريّة الذي ظننّا أننا بصدد عيشه هو فجرٌ كاذبٌ، وأنّ الليل العربيّ الطويل والبارد مازال مستمرًّا إلى حين. واتّضح أنّ ما نعيشه اليوم هو الصيغة المعدّلة من مشروع «الشرق الأوسط الجديد» الذي طرحه المحافظون الجدد في عهد القدّيس الديمقراطيّ جورج بوش الابن، وهو أيضًا فصل جديد من «الفوضى الخلّاقة» الذي بشّرتْنا به راهبةُ الحريّة والتقدّم كوندوليسّا رايس.

❖ أستاذ وباحث في الأدب الفرنسيّ.

عندما ترى المرتزقة في ليبيا يهلّلون ويكبّرون كلّما قصف الناتو مطارًا أو مستشفًى أو مدرسةً؛

عندما ترى «المفكّر» العنصريّ الصهيونيّ برنارد هنري ليفي ينظّر للديمقراطيّة العربيّة ويُستقبل استقبالَ الفاتحين في بنغازي وطرابلس؛

عندما ترى معارضين سوريين غاضبين من أمريكا لأنها «تتلكّأ» في احتلال بلادهم وتدميرها، ومثقفين فلقوا رؤوسَنا بكلامهم عن الحداثة والديمقراطيّة والنهضة العربيّة يزحفون من سفارةٍ غربيّة إلى أخرى ويقدّمون عروضَ التعرّي في حضرة الباب العالي في إسطنبول ويتقمّصون دورَ الغلمان في القصور الخليجيّة؛ عندما ترى كيف التزم الحكّامُ الجدُد الملتحون في تونس ومصر بالحفاظ على المصالح الاستعماريّة، وبطاعة المؤسّسات الماليّة الدوليّة وخدمةِ رأس المال الأجنبيّ ووكلائه المحلّيين؛

عندما ترى ما حصل في اليمن من تغيير الرئيس بنائبه وذراعه الأيمن مع إبقائه على رأس الحزب الحاكم وإبقاء أقاربه على رأس أهمّ المؤسّسات الأمنيّة والإداريّة؛

عندما ترى كيف فقد العالمُ حواسّه إزاء الانتفاضة البحرينيّة وكيف تقاطر شيوخُ العار (وعلى رأسهم يوسف القرضاوي) لكي يكفّروها بعدما هلّلوا للـ«ثورات الربّانيّة» في الدول «السنيّة»؛

عندما ترى مؤامرة الصمت العربيّ والغربيّ أمام تدفّق الدبّابات السعوديّة لسحق الانتفاضة البحرينيّة، وأمام ما يحدث في شرق «السعوديّة» من انتهاك لحقوق الإنسان؛

عندما يَضلّ آلافُ الشباب العرب طريقَهم إلى فلسطين والعراق، فيضيعون في متاهات ليبيا و سوريا (كما تاه من قبلهم آلافُ العرب في أفغانستان ويوغوسلافيا)، تموّلهم دولُ الخليج، وتدرّبهم تركيا، وتخطّط لهم إسرائيل وأمريكا، معتقدين أنهم يحاربون «الطاغوت» أو ينصرون «أهل السنّة»؛

عندما ترى كلّ هذا ولا تشعر بالغثيان، بل تصرّ على تسمية ما يحدث حولك بـ «الربيع العربيّ،» فأنت مصابٌ بغباءٍ عضال أو تعاني عمالة مزمنة!

❖❖❖

إذا كنتَ اليوم عربيًّا وتتمتّع بالحدّ الأدنى من الوعي والتحليل، فعليك أن تعترف بأنّ وضعك ليس بالمريح. مشكوك أنت في إيمانك ووطنيّتك وإنسانيّتك وتحضّرك وديمقراطيّتك؛ ولذا عليك أن تسارع إلى الانخراط في القطيع، فتسير بخطًى ثابتةٍ نحو المذبحة العربيّة الكبرى، وإلّا حُرمتَ من النعيم، واتُّهمتَ بالهرطقة والزندقة.

لكي تكون ثوريًّا حسب التوقيت المحلّيّ لهذا العصر السعيد، يجب أولًا أن تؤمن بأنّ «الثورات العربيّة» ثورات ربّانيّة، وأنّ طائرات الناتو طيورٌ أبابيل، وأنّ المرتزقة (الملتحين وغير الملتحين) هم الفاتحون الجدد، وأنّ المدرِّبين والجواسيس الغربيين هم ملائكة بعثهم الله لنصرة المجاهدين، وأنّه لا حرج في التحالف مع الإمبرياليّة والصهيونيّة في سبيل دحر «أعداء الله» الفرس والشيعة.

❖❖❖

الحديث عن الثورات يقودنا إلى الحديث عن الثيران التي أوردها ابنُ المقفع في إحدى قصص **كليلة ودمنة**. «بطل» الحكاية ثور أسود في منتهى الخنوع والغباء، يتواطأ مع ملك الغابة ويُعينه على افتراس إخوته الثيران الثلاثة (الأبيض فالأحمر فالأصفر)، حتى وجد نفسه ذات يوم وحيدًا أمام الملك الجائع، فقال: «أُكِلتُ يومَ أُكِل الثورُ الأبيض.»

سوريا اليوم هي الثور الأبيض، أما الثور الأسود فإنني أترك هويّته لخيال القارئ ونباهته.

لكي تكون ثوريًّا حسب التوقيت المحلّيّ، يجب أن تؤمن بأنّ طائرات الناتو طيورٌ أبابيل، وأنّ المرتزقة (الملتحين وغير الملتحين) هم الفاتحون الجدد، وأنّه لا حرج في التحالف مع الإمبرياليّة والصهيونيّة في سبيل دحر «أعداء الله» الفرس والشيعة.

الحرب على العراق كانت بمثابة «البثّ التجريبيّ.» أما الحرب على سوريا فهي انطلاقُ البثّ الرسميّ الذي سيصل كلّ بيت عربيّ، وسيجعلنا فرجةً للعالم. رجاءً عدّلوا أجهزة الالتقاط على التردّدات الجديدة، ولا تخافوا من التشويش المتعمّد أو العفويّ. قريبا سيدخل العربُ **كتاب غينيس للأرقام القياسيّة**: نحن الشعبُ الأقلّ تكلفةً في العالم بالنسبة إلى القوى الراغبة في استعمارنا. عرضٌ لا يقاوَم:

مع كلّ دولة عربيّة تحتلّها، يمنحك العربُ دولةً ثانيةً مجّانًا (العرض غير محدود).

❖❖❖

والحديث عن الثيران يقودني إلى الحديث على حيوانات أخرى: الأحصنة، وخصوصًا السوداء. فمنذ سنوات والعديد من المسلمين يتحدّثون عن «عداءٍ غربيّ للإسلام،» و«دعمٍ غربيّ لاضطهاد الأنظمة العربيّة للإسلاميين،» و«رفضٍ غربيّ لوصول الإسلاميين إلى الحكم في البلدان العربيّة.» كلّ هذا كان مجرّدَ

ذرّ للرماد في العيون؛ إذ إنّ أغلب التيّارات الإسلاميّة كانت دائمًا حليفًا وفيًّا للقوى الاستعماريّة: منذ النشأة الإخوانيّة في مصر (سنة ١٩٢٨) برضا الملك فؤاد ودعم الاحتلال البريطانيّ، وصولًا إلى الصيغة الجهاديّة التي انطلقتْ منذ ثمانينيّات القرن الماضي في خدمة المصالح الأمريكيّة في أفغانستان ويوغوسلافيا والشيشان وجمهوريّات آسيا الوسطى وعدّة أماكن أخرى. وفي العقدين الأخيرين احتضنت الدولُ الغربيّة الإسلاميين (وبخاصّةٍ الجناح الإخوانيّ)، وأطعمتْهم من جوع، وآمنتْهم من خوف. ولم يكن ذلك طبعًا التزامًا برفع راية حقوق الإنسان، أو عملًا بالقانون الدوليّ، بل كان حجرًا تَضرب بها سربَ طيور: مزيدٌ من الضغط على الأنظمة العربيّة المنبطحة أصلًا، وتحضيرٌ للبديل الأكثر تناغمًا مع المصالح الإمبرياليّة، وقَطْعٌ للطريق أمام كلّ تغيير ثوريّ حقيقيّ، وتفخيخٌ للشرق الأوسط بالقنابل الدينيّة حتى يَسْهل الهدمُ وإعادةُ التشكيل، ونشرٌ للفكر الخرافيّ من أجل تأبيد التخلّف العربيّ.

باختصار، كان الإسلاميون هم الحصانَ الأسودَ الذي راهنتْ عليهم الإمبرياليّة، في حين اعتقد العديدُ من الحمير المتعدّدي الألوان أنهم الرهان الطبيعيّ للدول الغربيّة «الديمقراطيّة.»

قريبا ستصبح كلمة «عربيّ» كلمة بذيئة، بعد أن كانت مجرّد تهمة. ارفعْ رأسك يا أخي فأنت مسلم، أنت مسيحيّ، أنت سنّيّ (مع مراعاة فوارق المذاهب)، أنت شيعيّ (مع مراعاة فوارق المذاهب)، أنت درزيّ، أنت علويّ، أنت مارونيّ، أنت ارثوذوكسيّ، أنتَ كلّ شيء إلا أن تكون عربيًّا.

❖❖❖

أرجو أن لا يُفهم كلامي على أنّه دعوة إلى الحفاظ على الأنظمة العربيّة البائسة. إنه دعوةٌ إلى الكفر بهذا «الخريف العربيّ،» المعدّل وراثيًّا في المخابر الأمريكيّة، والمعبّأ في المصانع الصهيونيّة، والحامل لختم «حلال» وهّابيّ. إنّ ما نعيشه اليوم ليس الفصل الأول في عصر النهضة العربيّة بل الفصل الأخير، والأقسى، في عصر الانحطاط العربيّ. لكنّ، بعده، ستسقط كلُّ الأقنعة أو ما تبقّى منها. إنه «الفجر الكاذب» الذي يسبق «الفجر الصادق» بسويعات؛ فالثورة العربيّة الكبرى آتية لا ريب فيها، ولو بعد حين.

إنّ عناقيد الغضب العربيّ ستنضج قريبًا، وإنْ حاول البعض ـ عبثًا ـ حجبَ الشمس عنها.

تونس